

قضايا ديداكتيكية

في كتاب تحليلات الصورة لسعيد بنكراد

الحسين أو عسري

يأتي الإقرار، مرة أخرى، بوجود هوة بين سلكي التعليم الثانوي التأهيلي والتعليم العالي⁽¹⁾ من لدن باحث أكاديمي رصين، خبر مجال تحليل الخطاب بصربيا كان أو لفظيا. يتعلّق الأمر بالسيميائي المغربي سعيد بنكراد الذي استدعي منذ سنوات مضت إلى إحدى مديريات التعليم بالدار البيضاء من لدن جماعة من الأساتذة لمناقشة قضايا الصورة التي يشكل الترن على تحليلها إحدى مهارات مكون التعبير والإنشاء في مادة اللغة العربية. تفاجأ الكاتب بالعدد الغفير من الحاضرين الذين حبو طواعية للقاء، وتفاجأ أكثر بما أثاروه من إشكالات الصورة، وطراحت تحليلها؛ فكان من نتائج ذلك تأليف كتاب (تحليلات الصورة: سمائيات الأساق البصرية)⁽²⁾ الذي تضمن قضايا ديداكتيكية؛ تتمثل في رصد جملة من الملاحظات تخص الصور المرفقة بالنصوص في الكتاب المدرسي، وتقديم مقتراحات عملية عبارة عن دعامات ديداكتيكية، تعين المدرسين على تدريس الصورة للمتعلمين على نحو أمثل.

قد يبدو من التجاوز أن يقف الباحث في هذا الكتاب، الذي يتضمن ثمانية فصول، عند مفهوم الصورة الذي خصص له الفصل الأول، مستجلياً منطلقاتها النظرية وأسسها،

وتطورها عبر العصور، مستعيناً في ذلك بحدها اللغوي والاصطلاحي، لاسيما وأن لديه العديد من المؤلفات التي أصدرها قبل هذا الكتاب، خصها لمفهوم الصورة تنظيراً وإنجازاً وترجمة⁽³⁾. لكن الباعث على هذا كون الكتاب موجهاً في المقام الأول للمدرسين، مما جعله ينقل المفاهيم من حضنها العلمي الأكاديمي إلى معرفة مدرسية يمكن أن يتفاعل معها المتعلمون، وفق ما يقتضيه النقل الديداكتيكي الذي يعني "مجموعة من التغييرات التي ترافق المعرفة حينما نريد تدريسها"⁽⁴⁾. فما يحتاجه المدرسوون في تدريس مهارة تحليل الصورة هو التقنيات والأدوات والمستويات والقدرة على التحليل، وليس الكم الهائل من المعارف النظرية التي كُتبت حول الصورة. بعبارة أخرى، يحتاج مدرسو السلك الثانوي التأهيلي والإعدادي في تحقيق الكفايات المطلوبة درساً وليس دراسة. لذلك نحا المؤلف، وهو واعٍ بهذا الأمر، منحى تبسيطياً في تعامله مع المفاهيم المتعلقة بالصورة ونظرياتها.

تلك أولى القضايا الديداكتيكية في هذا الكتاب، التي أجملها الكاتب في مستويين متعالقين، هما: المستوى الأيقوني المرتبط بالواقع/المرجع الذي تحيل عليه الصورة، والمستوى التشكيلي المتعلق بالعناصر التي تشكل كنه الصورة وموضوعها. ولعل هذا ما قاده إلى الوقوف عند عدد كبير من المفاهيم المرتبطة بالمستويين السالفين؛ تحدث عن اللقطة وأنواعها، وعن النظرة ودلاليتها، وعن الإطار مبرزاً الفرق بينه وبين المجال، وعن الوضعية (la pose) بختلف أشكالها، وعن التركيب ووظائفه؛ مقدماً نماذجً عن هذه المفاهيم عبارة عن صورة، حللها استناداً إلى ما بسطه وشرحه، مزاوجاً في ذلك كله بين التنظير والإنجاز. ولكي تتضح دلالات المفاهيم التي استند إليها، واعتبرها محورية في تحليل أي صورة، انتقى صوراً دالة وبسيطة في الوقت نفسه، تبرز دلالات المفاهيم وتوضحها بشكل دقيق. وللإحاطة أكثر بعوالم الصورة، لم يغفل الأشكال الهندسية ورمزيتها، من خلال حديثه عن

المربع والمستطيل والدائرة والمثلث، نظراً لما يحظى به الشكل الهندسي من حضور قوي في الكتب المدرسية لأهميته القصوى في تمثيل القيم والأفكار والتصورات والمساعدة على استيعابها.

لقد أبرز أن الأشكال الهندسية ليست مجرد خطوط في الفضاء، بقدر ما هي تمثيل بصري لموضوع، منها ما هو مناسب للصورة ومنها ما هو منبوز؛ فالشكل الهندسي الأكثر تداولاً في مجال التصوير، بصرف النظر عن طبيعة الصورة ونوعها، هو المستطيل، "إنه الشكل المفضل عند التشكيليين والنحاتين وصانعي الملصقات"⁽⁵⁾، خلافاً لأشكال أخرى تعد مرفوضة في هذا الباب مثل المثلث الذي "لا يمكن أن يكون وعاء للوحة، وغالباً ما تتجنبه الوصلة الإشهارية، إلا في حالات خاصة، وذلك لإيحاءاته المنطقية القوية، من حيث التركيب أولاً، فهو موزع على زوايا بالغة الحدة، وثانياً لأنه لا يتلاءم مع طبيعة اللوحات الإعلانية التي في الغالب مستطيلة أو مربعة".⁽⁶⁾

إن الوقوف عند الأشكال الهندسية مهم وضروري، بحكم أنها تدرس في مواد أخرى (الرياضيات مثلاً)، ويمكن أن يستدعي المتعلم معارفه في هذا الإطار، ويوظفها في تحليل الصورة، ولا أحد ينكر أهمية الأشكال الهندسية في بناء التعليمات لاسيمما في المراحل الأولى من الدراسة عندما تغدو أدلة التمثيل الأولى، وفي ذلك إشارة ضمنية إلى أن حقل الصورة يستفيد من عدة علوم لاسيمما تلك المتعلقة بالأشكال الهندسية التي شكلت مدرسة فنية قائمة بذاتها عند التكعيبين.

ومن جملة ما أعاره المؤلف اهتماماً بالغاً في مؤلفه الألوان. فلا أحد ينكر الدور الذي تضطلع به الألوان في إعانة المتعلمين على الفهم السليم، والإدراك العميق للظواهر وتمثلها تماماً دقيقاً. لذلك استرعت دلالات الألوان وإيحاءاتها التي تختلف اختلاف السياق الذي

توظف فيه اهتمامه، توقف عند وظيفتها، كاشفا عن علاقتها بالقيم والمعتقدات والتصورات، مشددا على أن اللون لا يكتسي دلالة خارج النسق الثقافي الذي عده إحدى التوافذ الأساسية التي تقود إلى اسکاه معاني الصورة.

هذه الاعتبارات هي التي جعلته يعنون ثلاثة فصول (الفصل الرابع والخامس والسادس) من الكتاب بعنوان واحد: كيف تنتج الصورة معانيها؟ هذا سؤال ديداكتيكي دقيق، تطلب الإجابة عنه نوعا من التدرج؛ حيث انتقل من دوال التشكيل في التمثيل البصري بشكل عام مرّكا على الرسم الذي يتشكل من أشكال وخطوط إلى دوال التشكيل في الصورة التي تستعين بمكونات أخرى لا ترد في الرسم.

أما ثانى القضايا الديداكتيكية في الكتاب، فتمثل في إبداء ملاحظات حول مجموعة من الرسوم⁽⁷⁾ في الكتاب المدرسي المغربي؛ رسوم انتقاها من كتب لمستويات مختلفة (الابتدائي والإعدادي)، حللها وأبرز ما اعتبرها من جمادات ومزائق تكشف عن هوة بين موضوعها وموضع النصوص أو المجزوءات التي ترقق بها، يقول: "رغم أن أغلبية الكتب المدرسية تستعين بالرسوم من أجل التوضيح، فإنها لا تستعمل الرسم استنادا إلى هذه الخصائص إلا في النادر، فهي لا تلتزم بهذه المقتضيات التي يمكن أن تقود إلى بناء عملية تعليمية تساعد الطفل على التفكير، بل تقدم له أحکاما جاهزة، كما في النصوص".⁽⁸⁾

قاده تحليل الصور إلى الكشف عما يعوزها في تبليغ مقاصدها، وفي طليعة ما يعوزها العبارات اللغوية التي ترقق بها، فهي إما أبيات شعرية ردية لا تفي بالغرض، وإما أنها ترقق بنصوص يوجد بون شاسع بين مضامينها وشكل الصورة. وفي هذا الصدد أوضح أن العملية التعليمية - التعليمية "لا تقوم على النيات، بل على منهج تربوي دقيق يسرّب المعرفة في جرعات تراعي اللحظة والسن والمقام"⁽⁹⁾، ولا تقوم كذلك على الحث والمنع

والترهيب والترغيب، وهي كل معان تحيل عليها العديد من الرسوم، فالأصل أن نساعد الطفل على اكتشاف عالمه لا أن نخاطبه بصور بين خلفيتها الفكرية التي يقصدها واضح الكتاب والعصر هوة كبيرة جدا، فعظام الصور تقوم على تحديد الماضي، وتسعى إلى احتضان أحلامه وقيمه، لكن "رسم منتدى من خارج الذاكرة الحديثة للطفل"(10).

لقد كشف عن خلفيات هذه الرسوم، ووضح أن الفكرة في الغالب تكون سابقة على الرسم، وقد أفرد لهذا الموضوع فصلاً كاملاً عنونه بـ"رسوم الكتاب المدرسي: ملاحظات عامة"(11). وفي هذا الفصل، سيتضح أن كل ما قدمه من دعامتين ديداكتيكية لتحليل الصورة في الفصول السابقة، نابع من الملاحظات التي انت له وهو يتصفح كتاباً مدرسياً لمستويات تعليمية مختلفة، ويمكن اعتبارها، إلى جانب نقاشه مع الأستاذة، وضعيات انطلق منها تأليف هذا الكتاب.

نستشعر أن المؤلف متذر إلى حد ما من الهوة بين صور الكتاب المدرسي والواقع والقيم الإنسانية النبيلة، متذر من عدم استشارة واضعي الكتب المدرسية أصحاب الاختصاص، للاستعانة بخبراتهم وتجاربهم، التي من شأنها أن تطور درس الصورة بعيداً عن الجفاء. وهذا التزمر، يذكرنا بالشعور نفسه الذي أحس به "طودروف" الذي استغرب للكيفية التي يختزل بها الأدب في المدارس الثانوية اختزالاً عبيداً(12)، مما يجعله ملا ورتيبة، فجاء كتابه السالف الذكر منها إلى مزاق تدريس الأدب، وما يتربى عن ذلك من نتائج وخيمة على الأدب بشكل عام. ونحن نرى أن كتاب "تجليات الصورة" من صنف هذه الكتب، التي تنبه إلى إشكالات التدريس وتقدم حلولاً لمعالجتها، وفي ذلك سعي حيثث من لدن الكاتب إلى إقامة نوع من التجسير بين السلكين: العالي والثانوي.

والمرات التي تعرّض فيها الدكتور سعيد بنكراد لمواضيع ذات الصلة بالديداكتيك عديدة، من أهمها ما يتعلّق بلغات التدريس تحديداً، وما نتج عنها من وضع معاجم للعامية⁽¹³⁾؛ هذه قضايا ذات منزع سياسي كان لبنكрад رأي فيها. لكن الكتاب، موضوع هذه الدراسة، تعتبره من أهم كتبه إثارة لقضايا ديداكتيكية شديدة الارتباط ببناء التعلمات لدى المتعلمين.

نعم، هذا كتاب في الديداكتيك الخاص الذي "يهم بتدريس مادة من مواد التكوين من حيث الطرائق والوسائل والأساليب الخاصة بها"⁽¹⁴⁾، وليس كتاباً أكاديمياً بالمعنى الدقيق للكلمة؛ إنه كتاب مدرسي، قدم مقتراحات عميقه وملاحظات سديدة فيما يخص تدريس الصورة. لذلك نرى أن قراءته من لدن المدرسين الذي شكلوا منطلقه وهدفه، أمر ضروري وغاية في الأهمية، لأنّه سيذلل العديد من الصعوبات التي تعترى سبيلهم فيما يتعلّق بتدريس الصورة لمتعلمين يعيشون في عصر سطت فيه الصورة على كل جوانب الحياة.

1-بنكрад (سعيد): *تجليات الصورة - سيميائيات الأساق البصرية*- المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، ط، 1، 2019.

2-نذكر من هذه المؤلفات على سبيل المثال لا الحصر:

3-غوتبي(غي): *الصورة(المكونات والتأويل)*: تر: بنكрад(سعيد)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط، 1، 2012.

- بنكрад(سعيد): *بين النحو والصورة(تعددية الحقائق وفرجة الممكن)*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط، 1، 2017.

- فيكتروف(دافيد): *الإشهار والصورة(صورة الإشهار)*، تر: بنكрад(سعيد): منشورات ضفاف، ودار الأمان، ومنشورات الاختلاف، ط، 1، 2015.

4-آيت أوشان(علي): *اللسانيات والديداكتيك - نحو النحو الوظيفي: من المعرفة العلمية إلى المعرفة المدرسية*- دار الثقافة مؤسسة للنشر والتوزيع، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط، 1، 2005، ص: 34.

5-بنكрад(سعيد): *تجليات الصورة*، مرجع سابق، ص: 161.

6-نفسه، ص: 162.

7-بنكрад(سعيد): *تجليات الصورة*، ص: 232.

8-نفسه، ص: 249.

9-نفسه، ص: 239.

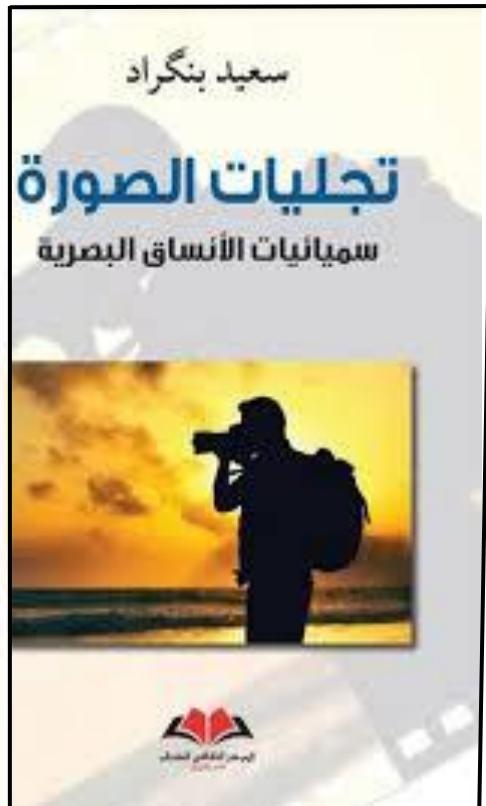
10-شكل هذا العنوان موضوع الفصل السابع من المؤلف المذكور.

11-طودوروف(ترفيطان): الأدب في خطير، مرجع سابق، ص: 11

12-يمكن الاطلاع على رأيه في هذا الموضوع من نقر رابط موقعه:

<http://www.saidbengrad.net>

13-آيت أوشان(علي): مرجع سابق، ص: 21



صدر حديثاً

